بلاغة الجمهور

مفاهيم وتطبيقات

تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي د. عبد الوهاب صدّيقي

شهريار

تحرير وتقديم
د.صلاح حسن حاوي
د.عبدالوهاب صدّيقي

بلاغة الجمهور
مفاهيم وتطبيقات

شهريار

شهريار.. حكاية في كتاب

يسعى كتاب "بلاغة الجمهور" إلى تقديم إضافة جذرية إلى البلاغة العربية المعاصرة؛ إذ يستكشف آفاقًا جديدة للعلاقة بين البلاغة ونظريات التلقي، والتواصل، وتحليل الخطاب. كما يُطوّر مداخل منهجية، وتطبيقات دقيقة مبسطة، لدراسة كمٍّ وافر من الاستجابات الجماهيرية على أعمال روائية، وسير شعبية، وخطب سياسية، ووعظ ديني، وتعليقات فيسبوك، وغيرها؛ وذلك بهدف تعبيد الطريق أمام الباحثين الراغبين في ارتياد أفق بلاغي جديد، يُعنى باستجابات الجمهور في الفضاءات العمومية.

ينتمي هذا الكتاب إلى الدرس البلاغي المعاصر، الذي لم يتوقف عند حدود دراسة التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والصور البلاغية الأخرى، ولا عند دراسة كيفية إمداد المتكلّم بعدّته البلاغية؛ ليتمكن من الإقناع والتأثير، كذلك لم يكتفِ هذا الدرس بقراءة الخطابات النخبوية، بل راح يفكر في ميادين جديدة للعمل، ويبتكر مفاهيم، ومنهجيات تُضاف إلى ما قدّمه التراث البلاغي الزاخر؛ في توجهاته البلاغية الثلاثة: الأدبية، والدينية، والإنشائية.

لقد دفع عصر استجابات الجماهير العلوم الإنسانية إلى أن تهتم بأنواع غير تقليدية من مادة البحث؛ هي خطابات الجماهير. وكانت بلاغة الجمهور استجابة علمية لخصوصية التواصل الإنساني في هذا العصر الجديد. وفي هذا الكتاب يُقدّم المحرّران أربع عشرة دراسة لباحثين متخصصين في تحليل الخطاب، واللسانيات، والبلاغة الجديدة، قدّموا فيها المفاهيم الأساسية لبلاغة الجمهور، ومنهجيات تحليلها، وأمثلة تفصيلية لتطبيقها على الخطاب الاجتماعي، والسياسي، والديني، والأدبي، والإعلامي.

الناشر

nwf.com
نيلوفرات.كوم
safaadhiab@yahoo.com
العراق، البصرة، العشار
009647730800453

بلاغة الجمهور.. مفاهيم وتطبيقات

دراسات محكّمة

تحرير وتقديم: د. صلاح حسن حاوي- د. عبد الوهاب صديقي

الطبعة الأولى: 2017

الغلاف: صدام الجميلي

حقوق النسخ والتأليف © دار شهريار

Copyright©2017 by **Shahrayar Books**

العراق / البصرة / العشار / خلف فندق اليرموك / مقابل مقهى الأدباء في العشار

Mob: 009647730800453 - 009647814145195

بريد إلكتروني: safaadhiab@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي من الناشر.

الترقيم الدولي ISBN: 978 -1-77322-269-1

بلاغة الجمهور

مفاهيم وتطبيقات

تحرير وتقديم

د. صلاح حسن حاوي د. عبد الوهاب صدّيقي

إلى الحالمين بآفاق بلاغية جديدة

المحتويات

تقديم المحررين 9

الدراسة الافتتاحية: عماد عبد اللطيف: ماذا تقدّم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟ 17

القسم النظري 43

إدريس جبري: في علاقة البلاغة العامة بالبلاغة الخاصة: بلاغة الجمهور نموذجًا 45

سعيد بكار: في مفهوم بلاغة الجمهور 69

صلاح حسن حاوي: بلاغة الجمهور ونظريات التواصل 97

عبد الوهاب صديقي: بلاغة الجمهور مفاهيم وقضايا 118

عماد عبد اللطيف: منهجيات دراسة الجمهور 136

القسم التطبيقي 173

المحور الأول: بلاغة الجمهور والخطاب الديني 175

حامدة تقبايت: بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني.. خطاب الفتوى أنموذجًا 177

ضياء الدين محمد: بلاغة جمهور الخطاب الديني في الفضاء الافتراضي 205

المحور الثاني: بلاغة الجمهور والخطاب السياسي 253

أحمد عبد الحميد عمر: يسقط يسقط! بلاغة الجمهور بوصفها ممارسة حجاجية 255

بسمة عبد العزيز: بلاغة المقاومة..الجمهور وخصائص الاستجابة النقدية البليغة 272

بهاء الدين أبو الحسن: بلاغة الجمهور بين الفكاهة والعنف اللفظي 310

عبد الوهاب صديقي: بلاغة الجمهور والخطاب السياسي المغربي المعاصر 328

المحور الثالث: بلاغة الجمهور والسرد 365

خالد أبو الليل: السيرة الهلالية والتلقي الشعبي..... 367
ممدوح النابي: السُّلْطَةَ الخَادِعَةَ... والوَعي الزَّائِف..... 416
مصادر الكتاب ومراجعه..... 453

ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟

الإسهام، الهويّة المعرفيّة، النقد

د. عماد عبد اللطيف

منذ عشرة أعوام، نشرتُ دراسة بعنوان "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب إلى مقاومته"، قدمتُ فيها مقترحًا لتأسيس توجه بلاغي، أطلقتُ عليه حينها "بلاغة المخاطَب". قدمتْ الدراسة صياغة للتوجهات التقليدية في البلاغة العربية، استنادا إلى محددات ثابتة هي مادة العلم، وموضوعه، ووظيفته، وتتبعتْ المشكلات التي تواجه هذه التوجهات، وكيف يمكن علاجها عبر اقتراح توجه معرفي هو "بلاغة المخاطَب". قدمت الدراسة بالتفصيل الأصول النظرية التي يقوم عليها التوجه المقترح، والمقاربات التي يُفيد منها، وبعض مبادئ ممارسته، ولائحة بالموضوعات التي اقترحتُ أن تُدرَس في إطاره.

وتلقى مشروع بلاغة المخاطَب/ الجمهور منذ نشر الدراسة، ردودَ فعل متباينة، اتخذ بعضها منحىً تطبيقيًا، هدفه استكشاف إمكانيات الإفادة من المشروع في معالجة تنويعة من النصوص والخطابات المتباينة. في حين توجه بعض آخر إلى مساءلة الأسس النظرية للمشروع، وبخاصة مساءلة علاقته بحقول معرفية أخرى، وجدارته بالانتماء إلى حقل البلاغة العربية، والأهداف التي يسعى لتحقيقها، وإمكانية ذلك. وقد حدث تراكم معرفي حول المشروع يدفع باتجاه تقديم مراجعة شاملة لمنجزاته، وإخفاقاته، وآفاقه المحتملة.

إنّ أفضل سبل دراسة واقع المشاريع المعرفية، هي تأمل جذورها، والسياق الذي أُنتجت فيه. وسوف أنطلق من ذلك إلى مناقشة بعض أهم الانتقادات والتحديات التي طُرحت على مشروع بلاغة الجمهور على مدار المرحلة الماضية. وعلى وجه التحديد، فإنني سألخّص بإيجاز الإضافة التي يقدمها للبلاغة العربية. وأقدم دراسة تفصيلية للانتقادات المباشرة التي وُجِّهت إليه.

في أوائل عام ٢٠٠٤، كنت متفرغًا تفرغًا كاملًا لدراسة الخطابة السياسية العربية في القرن العشرين. وكان من الطبيعي أن أُولي اهتمامًا للتحول الذي طرأ على دور الجماهير في تلقي الخطابة السياسية وتداولها. كنتُ قد قضيتُ عقدًا من الزمان في صحبة البلاغة العربية القديمة، وتعلمتُ أن المتكلم هو محور الفعل البلاغي، وغايته، وأن المخاطَب (الجمهور، بمصطلحات التواصل العمومي) هو مرمى التصويب. كانت الشعوب العربية في تلك المرحلة تعيش حالة استبداد جاثم، بشكل أو آخر. وكان هذا الاستبداد يُمارَس ويُنجز بواسطة أدوات التواصل الجماهيري، بأكثر مما يُمارس بواسطة آليات القمع التقليدية.

كنت أتأمل حولي – بوصفي باحثًا بلاغيًا – وأتساءل عن دور البلاغة في تغيير العالم؛ كما يليق بشاب في ثلاثينات عمره، يتملّكه حُلم رومانسي بعالم أفضل، ويسيطر عليه إيمان عميق – أكثر رومانسية – بدور المعرفة في تحرير البشر. وبعد زمن من التفاعل المتواصل مع الخطب السياسية، والمنهجيات الغربية في تحليلها، والتراث البلاغي العربي الذي عالج أشباهها، وصلتُ إلى قناعة بأن علم البلاغة ينبغي أن ينقلب رأسًا على عقب، حتى يتحول من أداة لإنجاز التلاعب والسيطرة، إلى أداة لإنجاز الوعي والتحرير. وأن هذا التحول يستلزم بالضرورة تحوُّل علم البلاغة والممارسة البلاغية من محورية المتكلم في الفعل البلاغي إلى محورية المخاطَب (الجمهور). وعكفتُ على مدار صيف عام ٢٠٠٤ في كتابة بحث مطوّل أعرض فيه الأسس المعرفية لهذا التحول من بلاغة المتكلم إلى بلاغة الجمهور، ودواعيه، وآثاره، وأقدم أمثلة تطبيقية على إمكانية إنجازه. ذلك البحث الذي نُشر عام ٢٠٠٥، يُعد محور الارتكاز لمشروعي في تحديث البلاغة. وربما آن الأوان لإعادة تأمله ومراجعته؛ لذا فإنني سأسعى في هذا البحث إلى رسم ملامح الإسهامات التي سعت بلاغة الجمهور إلى تقديمها للبلاغة العربية المعاصرة، سواء على مستوى مادة البحث البلاغي، أو وظيفته، أو أسئلته المعرفية. علاوة على ذلك، أناقش الهويّة المعرفيّة لبلاغة الجمهور، ثمّ أُقدم مناقشة تفصيلية للنقد الذي وجِّه أو يمكن أن يوجّه، لبلاغة الجمهور، وتقديم مقترحات لسد بعض الفجوات التي تحتاج إلى تجسير.

أولًا: ماذا قدمتْ بلاغة الجمهور للبلاغة العربية؟

يمكن اختصار ما تقدمه بلاغة الجمهور للبلاغة العربية في ثلاث إضافات أساسية، تخص مادة علم البلاغة، ووظائفه، وأسئلته المعرفية. وسوف أستعرض كل عنصر منها بالتفصيل.

١. مادة جديدة للدرس البلاغي: استجابات الجمهور

تستمد المعارف جزءًا من خصوصيتها من الاستقلال بموضوع بحثٍ تُعرف به دون سواها. وقد استقل علم البلاغة لقرون طويلة – في لغات متنوعة – بدراسة الإقناع والتأثير بواسطة اللغة المنطوقة والمكتوبة، في نصوص تُنتجها النخب الأدبية، أو السياسية، أو الفكرية. وكانت المادة التي يدرسها علم البلاغة هي ما تنتجه هذه النخب من أقوال ونصوص، وهي النصوص التي استُقر على تسميتها بـ"النصوص العليا"، بعد أن أضيف إليها ما يمكن تسميته بالنصوص المتعالية، التي تنتسب إلى ذوات إلهية أو مقدسة، مثل الكتب السماوية، وأقوال الأنبياء، والقديسين. وقد أخلصتْ البلاغة العربية تحديدًا لدراسة النصوص العليا والمتعالية دون غيرها، بسبب ارتباطها الوثيق بالنص القرآني. وتَشكّلَ نتيجة هذا الارتباط إدراكٌ مهيمن بأن المعارف تستمد شرفَها من شرف المادة التي تدرسها، فلم يغامر علماء البلاغة العرب بتعريض علمهم للتدنيس بدراسة كلام الغوغاء والعامة ونصوصهم. ولم يُعن الدرس البلاغي بخطابات الحياة اليومية، ونصوصها، ناهيك عن الاهتمام بالآداب الشعبية.

من زاوية أخرى، ينصب اهتمام الدرس البلاغي العربي على النصوص والخطابات النخبوية، وليس على ردود الأفعال اللفظية وغير اللفظية التي يُنتجها متلقو هذه النصوص والخطابات في السياقات الفعلية. وذلك باستثناء خمس ظواهر محددة، اهتمت باستجابات المتلقين؛ رصدتُها فيما يأتي:

أ- أسلوب الحكيم:

ويعرّفه السكاكي بقوله ((تلقي المخاطَب بغير ما يترقّب،...، أو السائل بغير ما يتطلّب))[1]. كما في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة ١٨٩). فالسؤال موجه إلى الماهية والكينونة، أما الإجابة فارتكزت حول الوظيفة والفائدة. ويخلق هذا الأسلوب كسرًا جليًا في أفق توقع السائل يدفعه إلى مساءلة خطابه الأصلي، والتأمل في الإجابة المغايرة لأفق توقعه. ويهتم البلاغيون عادة بتفسير علّة عدول المخاطَب عن الإجابة المتوقعة إلى الإجابة غير المتوقعة. ويُنجَز هذا عبر إعادة تأويل أغراض الكلام، كما يُنسب عادة للمخاطَب (أو المتكلم في حال المبادأة بالخطاب) تمتعه بكفاءة تواصلية خاصة أو حكمة ثاقبة، تُمكنه من إحداث مثل هذا التغير الجذري في مسار الكلام.

١- السكاكي، أبو يعقوب (٦٢٦هـ). مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٢٧.

ب- الأجوبة المُسكِتة (المُفحمة):

الأجوبة المسكتة وسم لجواب عن سؤال، أو رد على قول، أو تعليق على كلام، أو خطاب، سِمَتُها أنها موجزة، قاطعة الدلالة، عصية على التفنيد أو التشكك، تُغلق دائرة التواصل أو الحوار، ولا تخلو من مفارقة أو تهكم. ويبدو أن البلاغيين العرب لم يولوا هذا الأسلوب البلاغي الحجاجي الأهمية التي يستحقها، فقد خلت أغلب قوائم الأساليب والوجوه البلاغية التي حررها البلاغيون العرب منه، بما في ذلك القائمة الأشمل والأكبر التي أعدها ابن أبي الإصبع العدواني في "بديع القرآن"، وتضمنت مائة وثلاث وعشرين ظاهرة بلاغية. كما خلا معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب من ذكره.

من الأجوبة المسكتة ما يكون تعقيبًا على خطبة، على نحو ما نرى في رواية تحكي أن رجلا تكلم في مجلس ابن عباس فخلَّط، فقال ابن عباس: "بكلام مثلك رُزق الصمتُ المحبةَ"[1]. ومثله ما يُروى عن أن الحجاج بن يوسف الثقفي قد خطب يوم جمعة "فأطال، فقال له رجل: إن الصلاة لا تنتظرك، وإن الله لا يعذرُك. فأمر بحبسه، فجاء أهله فشهدوا بأنه (أي الرجل) مجنون. فقال الحجاج: إن أقرّ بجنونه أطلقتُه. فقال الرجل: لا والله لا أنحل الله فعل ما لم يفعل"[2]. وفي الاستشهادين السابقين تبدو عبارة المخاطَب قاطعة، مغلِقة لحلقة الكلام. وليس غريبًا أن عبارة ابن عباس تتضمن في معناها فرضًا للصمت؛ أي إكراهًا جبريًّا للمتكلم على السكوت؛ ومن هنا استمد هذا الأسلوب تسميته.

ومن الأجوبة المسكتة ما يكون ردودًا مُسكِتةً في حوار شخصي، كما نرى في ردود إياس بن معاوية على قاضي دمشق في القصة المشهورة بينهما، زمن عبد الملك بن مروان. فقد "قَدّمَ إياسُ بن معاويةُ شَيخًا إلى قاضي دمشق، وكان إياسُ يومئذٍ غُلامًا أمردًا[3]. فقال له القاضي: "أما تَستَحي؟ تُقدِّمُ شَيخًا كبيرًا إلى القضاء؟ قال إياس: الحقُّ أكبرُ مِنهُ؟ قال القاضي: ما أظُنُّكَ يا غُلامُ إلا ظالمًا؟ قال إياس: ما على ظَنِّكَ خَرَجتُ مِن أهلي، قال القاضي: اسكت!قال إياس: فَمَن يَنطِقُ بِحُجَّتي إذًا؟ قال القاضي: ما أظُنُّكَ تقول في مَجلِسكَ هذا حَقًا. قال إياس: أشهدُ أنّ لا إله إلا

١-انظر، ابن أبي عون، إبراهيم بن محمد. (ت٣٢٢ هـ). الأجوبة المُسكِتة، تحقيق مي أحمد يوسف، دار عين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص ٦٧.

٢- نفسه، ص ٧١.

٣- أي صغير السن.

الله"[1]. وقد بلغ من أثر أجوبة إياس على القاضي، أن دخل الأخير على الخليفة عبد الملك بن مروان، "فأخبره خبره، فقال عبد الملك: اقض حاجته، وأخرجه الساعة من دمشق؛ حتى لا يُفسد عليّ الناس"[2].

وتكشف عبارة عبد الملك بن مروان عن إدراكه لخطورة هذا الأسلوب البلاغي، وتخوفه من تأثيره المُحتمل على "الناس"؛ أي المواطنين العاديين. ويبدو أن هذا التخوف مرجعه إدراك عبد الملك للقوة الحجاجية التي تنطوي عليها الأجوبة المسكتة، والتي تستمدها من تمتعها بثلاث سماتٍ على الأقل:

الأولى: قوة التفنيد؛ فهي تضغط على الثغرات والمناطق الهشة في حجج المتكلم؛ مثلما رأينا في تفنيد نقد القاضي للغلام بتقديمه شيخًا كبير السن للمحاكمة، بقول الغلام إن الحق أكبر منه.

الثانية: فعالية المناورة؛ فهي تطور مناورات خطابية بارعة، يجسدها على أفضل نحو رد الغلام على القاضي حين قال: "ما أَظُنُّكَ تقول في مَجلِسكَ هذا حَقًا". فردُّ الغلام بقوله "أشهدُ أن لا إله إلى الله"، مناورة بارعة تضع القاضي في موقف خطابي شديد الصعوبة؛ فهو لا يستطيع أن يُكذّب الفتى، ويرضخ مرغمًا لتكذيب نفسه.

الثالثة: تحدي المؤسسات السلطوية، فالغلام الصغير يقف في مواجهة سلطة القاضي، ومعها سلطة الخليفة؛ إذ لم تكن سلطة القضاء مستقلة تمامًا عن السلطة السياسية؛ على نحو ما يُبرهن أمر الخليفة عبد الملك قاضي دمشق بأن "يقضي حاجة" إياس، بغض النظر عن السند القانوني لموقفه. هذا التحدي للسلطة ربما كان أكثر ما خشيه عبد الملك بن مروان؛ فالعامة – في المجتمعات المستبدة – لديها ولع دائم بإضفاء طابع أسطوري على من يتحدون السلطة علانية بشجاعة. وهذا ما فعله بالضبط الغلام الفصيح. وفي الحقيقة فإن هذا النوع من الأجوبة المسكتة يُعدُّ نموذجًا لما يُطلق عليه في بلاغة الجمهور "الاستجابات البليغة".

١- نفسه، ص ٥٥.

٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (ت٧٧٤). البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار الإحياء العربي، ط١ ١٩٨٨، ج٩، ص٣٦٦.

ت- القول بالموجب:

وهي ظاهرة بلاغية يقوم فيها المخاطَب بتأويل كلام المتكلم على نحو مغاير لما أراده المتكلم، وقد عرّفها أحمد مطلوب بأنها: ((رد كلام المتكلم وعكس معناه))، ويمكن أن أُمثّل لها بقصيدة رائعة لصفي الدين الحلي، تُبنى في شكل حوار بين مُحب ومحبوبة، تتوجه المحبوبة باللوم، ويردُّ المُحبُّ على طريقة القول بالموجب؛ منها قوله:

قالَتْ كَحَلتَ الجُفونَ بِالوَسنِ ... قُلتُ اِرتِقابًا لَطيفِكِ الحَسنِ
قالَـــتْ تَسَلَّيتَ بَـعـدَ فُرقَتِـنـا ... فَقُلتُ عَن مَسكَني وَعَن سَكَني
قالَتْ تَشاغَلــتَ عَن مَحَبَّتِنا ... قُلتُ بِفَرطِ البُكاءِ وَالحَزَنِ
قالَت تَناسَيتَ! قُلتُ: عــافِيَتي! ... قالَت تَناءَيتَ! قُلتُ عَن وَطَني
قالَت تَخَلَّيتَ! قُلتُ: عَن جلـدي! ... قالَت تَغَيَّرتَ! قُلتُ في بَدَنـــي[1]

فالمُحبُّ يعكس لوم المحبوبة بأنه ينام على غير عادة العاشقين الساهدين؛ بأنه ينام كي يراها في حلمه، ويعكس لومها له بالتشاغل عنها، بإثبات عكسه، مستعملا الفعل ذاته "تشاغل"، مع معمول آخر هو "فرط البكاء والحزَن". وعلى النحو ذاته، فإن الاتهام بتناسي المحبوبة، يُحوَّل إلى تناسي الصحة، والتنائي عنها يُحوَّل إلى التنائي عن الوطن... إلى آخر الأبيات.

أما كتب البلاغة العربية فتُمثِّل للقول بالموجب بشواهد معدودة منها: "قول رجل في قاضٍ أودع عنده مالا فادّعى ضياعه:

إن قال قد ضاعت فيصدق إنها... ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال: قد وقعت فيصدق إنها... وقعت ولكن منه أحسن موقع"[2].

ويمكن أن يُعد القول بالموجب من الآليات المساعدة في إنتاج الاستجابات البليغة. بواسطة التأويل العكسي لخطاب المتكلم، قد يتمكن المخاطَب من إنتاج استجابات تقاوم الخطابات السلطوية، بواسطة تفنيدها، وكشف تناقضاتها.

١- الحلي، صفي الدين. (ت ٧٥٠ هـ). ديوان صفي الدين حلي، دار صادر، بيروت، د. ت. ص ٤٠٩- ٤١٠.
٢- انظر، مطلوب، أحمد. (١٩٨٣). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها. المجمع العلمي العراقي، ج٣، ص ١٤٥-١٤٧. وقد ذهب بعض البلاغيين إلى أن القول بالموجب يقع ضمن أسلوب الحكيم، غير أن مطلوب يفند هذا القول. انظر، مطلوب (١٩٣٨)، نفسه، ج٣، ص ١٤٧.

ث- مجاراة الخصم:

ينقل أحمد مطلوب تعريف أسلوب "مجاراة الخصم" عن كتاب معترك الأقران للسيوطي بأنه ((مجاراة الخصم ليعثر؛ بأن يُسلّم ببعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه))[1]. والمثال المضروب مأخوذ من القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾ (سورة إبراهيم ١٠-١١). فقد أقر الرسل بجزء من انتقاد مخاطَبيهم، وهم أنهم بشر، ثم انتقلوا من هذا الإقرار إلى الرد على الانتقاد، مُستفتِحين حديثهم بأداة الاستدراك "لكن".

إن مجاراة الخصم تقنية حجاجية معروفة، تعتمد على الإيهام بالموافقة، ومن ثمّ يستكين الخصم، ويبدي تأييدًا للمتكلم. ثم تأتي لحظة المباغتة بالمخالفة، فتشل قدرة الخصم على التفنيد؛ خاصة أنه أبدى دعمًا وتأييدًا سابقًا، يقلل تراجعه عنهما من مصداقيته أمام الجمهور.

ج- أسلوب السؤال والجواب أو أسلوب المراجعة:

وهو أن يتضمن النصُّ سؤالا وجوابًا. كما في الأسئلة المتتابعة التي شكلت حوارًا دار بين سيدنا موسى وقومه حول ذبح البقرة. ويطلق الحموي على هذا الأسلوب، المراجعة؛ وهي "أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، ومحاورة في الحديث بينه وبين غيره بأوجز عبارة، وأرشق سبك، وألطف معنى... في بيت أو أبيات"[2]. ويبدو أن هذا الأسلوب لا يتعلق بنوع السؤال والجواب في حد ذاته، وإنما ينشغل بالدمج بين نوع السؤال والجواب وأنواع أخرى مثل الشعر والقرآن. والأمثلة التي قدمها الوطواط وابن قيم الجوزية، وغيرهما ممن نقل عنهم أحمد مطلوب، تتضمن استعمال أسلوب السؤال والجواب في الشعر والقرآن على وجه التحديد.

تشترك الظواهر الخمس السابقة فيما يأتي:

- أنها نتاج سياقات تفاعلية بالأساس، فهي تنتمي إلى أنواع تواصلية كالمحادثة، والمناظرة، والمنافرة، والشكوى، والتعريض، وغيرها من الأنواع التفاعلية.

١- معترك الأقران للسيوطي، نقلا عن مطلوب (١٩٨٣)، مرجع سابق، ج٣ ص ١٣٦.

٢- نقلا عن مطلوب (١٩٨٣)، مرجع سابق، ج٣، ص ٣٠-٣١.

- أنها تنتمي إلى سياقات التواصل بين الشخصي، والتواصل الجماهيري. لكن يغلب عليها التواصل بين الشخصي؛ إذ المتكلم شخص واحد، والمخاطَب شخص واحد في أكثر الأمثلة والشواهد.
- أن اللغة هي العلامة الأساسية المنتَجة في سياق التواصل في هذه الأنواع. إذ لم تتوجه العناية لعلامات أخرى أساسية في سياق التواصل المباشر مثل الصوت والحركة والهيئة.

وعلى الرغم من أن ثلاثًا من هذه الظواهر الخمس تُعنى بالمخاطَبين، وتحمل بعض سمات التشابه مع مدونة بلاغة الجمهور؛ فإن هناك فروقًا جذريةً بينها. إذ إنّ بلاغة الجمهور تُعنى أساسًا باستجابات الجمهور (لا الأفراد) في فضاءات التواصل العمومي (وليس الفضاء بين الشخصي)، وتركز على حزمة من العلامات المتنوعة (وليس اللغة وحدها). ويعني هذا أن بلاغة الجمهور تُحدث تغييرًا جذريًا في مادة البحث البلاغي؛ وتنقلها من دائرة خطاب المتكلم الفرد ونصوصه إلى دائرة الاستجابات اللفظية وغير اللفظية التي يُنتجها الجمهور في سياقات التواصل العمومي. وهي مادة مغايرة كلية للمادة التي عُنيت بها البلاغة العربية على مدار تاريخها الطويل، إذ:

- ينتجها المخاطبون (الجمهور) لا المتكلم؛
- تُتداول في فضاءات عمومية ليست فردية أو بين شخصية؛
- تنتمي إلى خطابات الحياة اليومية لا الخطابات العليا؛
- تشمل اللغة والعلامات الأخرى لا اللغة وحدها؛
- قد يشترك في إنتاجها جمع غفير لا شخص واحد؛

تفتح بلاغة الجمهور باب البحث البلاغي على مصراعيه؛ ليحتضن فيضًا من المادة البلاغية الجديدة التي لم تلتفت لها عيون البلاغيين من قبل؛ مثل التصفيق، والهتاف، والصفير، والإشارات، والهمهمة، والتعليقات، والمقاطعة، والأسئلة المرتجلة، وصيحات الإعجاب والاستهجان، ورسوم الحوائط، والعبارات المدونة على الأبواب، وتعليقات الفيسبوك، والتغريدات المضادة، والعبارات المسجلة على شريط التعليقات على شاشة التلفزيون، ورسائل القراء إلى الصحف، وغيرها. وهي استجابات تُنتَج في جميع سياقات التواصل العمومي، التقني والمباشر في الوقت الراهن.

قد لا تسوّغ خصوصية المادة بمفردها نشأة حقل معرفي جديد؛ إذ لابد أن يستقل هذا الحقل أيضًا بوظيفة مميِّزة، وأسئلة معرفية خاصة. وقد سعت بلاغة الجمهور منذ تدشينها إلى بلورة وظيفة مغايرة لعلم البلاغة، تُعدُّ من أهم ما تسعى إلى تقديمه.

٢. غاية جديدة للدرس البلاغي: خدمة المخاطَبين

ارتبط علم البلاغة لقرون عديدة بخدمة المتكلمين؛ إذ سعى نحو إمدادهم بإرشادات ونصائح تمكنهم من تحقيق أغراضهم من الكلام، والتي تمحورت غالبًا في التأثير في المخاطبين[١]. وكان الاهتمام المحدود الموجه لدراسة طبقات المخاطَبين، وحالاتهم، يوظف لتحقيق الغرض نفسه، وهو إحكام سيطرة المتكلمين عليهم. واكتسبت البلاغة بسبب ذلك سمعة سيئة في بعض المجتمعات، وانتُقدت بقسوة لكونها تفتقد إلى الأخلاق إلى حد كبير[٢]. نجحت هذه الانتقادات في وصم البلاغة، وتحقير العمل بها، وكانت حافزًا لتغييرات مهمة في علم البلاغة على نحو ما رأينا في المنجز الأرسطي، الذي حاول إنقاذ علم البلاغة بواسطة إحداث تحويل جذري في ماهيته، وإدراكه معًا؛ ليصبح علمًا للتواصل العمومي، لا تدريبًا على مهارات التلاعب بالجماهير. وما تحاول بلاغة الجمهور إحداثه هو استعادة البلاغة بوصفها معرفة ومهارة ذات وظيفة مجتمعية رشيدة.

تسعى بلاغة الجمهور إلى توجيه البلاغة، بوصفها معرفة عملية، نحو معالجة مشكلات ملموسة تواجه المجتمع. لقد عرف العصر الحديث ازدهارًا غير مسبوق في صناعة التلاعب بالعقول، بواسطة الخطابات الجماهيرية. وتصاعد الخطابة الشعبوية في السنوات القليلة الماضية أحد الأمثلة الصارخة بهذا الشأن. وتسعى بلاغة الجمهور إلى تشكيل وعي مضاد بالتلاعب البلاغي، وتمكين الأفراد العاديين من مقاومته بواسطة استجابات رشيدة، أطلقتُ عليها من قبل تسمية "الاستجابات البلاغية"[٣].

١- انظر، عبد اللطيف، عماد. (٢٠٠٥). بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته. ضمن "السلطة ودور المثقف"، جامعة القاهرة، ص ٧-٣٥، ص ١٢-١٤.

٢- عبد اللطيف، عماد. موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشارقة، مجلد ٥، عدد ٣ (٢٠٠٨)،ص ٢٢٧-٢٢٩.

٣- انظر، بلاغة المخاطب، مرجع سابق، ص ٢١.

لقد ارتبط علم البلاغة بأغراض عمليّة، لكنها لم تكن في كثير من الأحيان غايات نبيلة. وعلى خلاف ذلك، فإن دعم قدرات الجمهور على إنتاج استجابات بليغة، يمكن أن تكون بالفعل غاية نبيلة. ولعل هذا كان حافزي على إدراج بلاغة الجمهور ضمن حزمة العلوم النقدية التي تسعى لتحرر الإنسان[1]. وعلى الرغم من أنني أنسب لبلاغة الجمهور غاية نبيلة؛ هي تمكين الجماهير، فإنني أعي في الوقت ذاته المخاطر التي قد تنطوي عليها الممارسة الفعلية لبلاغة الجمهور. وقد تلقيت على مدار السنوات الماضية الكثير من الانتقادات التي تشكك في قابلية هذا المقصد للتحقق. وهي انتقادات وجيهة في معظمها، وواقعيّة أيضًا؛ إذ عادة ما تستند إلى أحداث ووقائع ملموسة، سوف أناقشها بالتفصيل لاحقًا. في حين سأنتقل الآن إلى العماد الثالث من الأعمدة التي تحتاج إليها أي معرفة تطمح إلى حيازة حقل خاص بها؛ أعني خصوصية الأسئلة المعرفية. وسأشرح بالتفصيل ما تقدمه بلاغة الجمهور للبلاغة العربية فيما يتعلق بالأسئلة المعرفية التي يسعى العلم للإجابة عنها.

٣- أسئلة معرفية جديدة للدرس البلاغي: العلاقة بين الاستجابة والخطاب

تقدم بلاغة الجمهور قائمة طويلة من الأسئلة المعرفية الجديدة التي تُعالَج في إطارها[2]. تتمحور هذه الأسئلة حول التحول الجذري الحادث في دراسة الظاهرة البلاغية؛ فقد انشغلت البلاغة العربية إما بالتركيز على تحليل النصوص البلاغية، وتصنيف أساليبها، وأبنيتها، أو تحليل العلاقة بين هذه النصوص والمقامات التي تُنتَج فيها، أو المجتمعات التي تتداولها، أو دلالتها على أغراض المتكلمين ومقاصدهم ونفسياتهم، أو العلاقة بين البلاغة والحقول التقليدية وثيقة الصلة بها. وتواصل بلاغة الجمهور طرح بعض هذه الأسئلة بصيغ جديدة؛ مثل طرح سؤال العلاقة بين البلاغة ومعارف مثل علوم الاتصال ونظريات التلقي. لكن السؤال المحوري في بلاغة الجمهور هو سؤال جديد؛ يخص العلاقة بين الخطاب والأداء من ناحية، والاستجابة من ناحية أخرى. وهو سؤال لم يُطرح من قبل في إطار الدرس البلاغي على نحو التدقيق. وعلى نحو أكثر دقة تحاول بلاغة الجمهور تفسير كيف أنتجتْ خطابات فعلية في سياقات فعلية استجابات معينة، وكيف – في المقابل – يمكن أن تؤثّر هذه الاستجابات في الخطاب الأصلي. ومن الطبيعي

١- انظر تفسيرًا لهذا الإدراج في: بلاغة المخاطب، مرجع سابق، ص ٣١.
٢- انظر، بلاغة المخاطَب، مرجع سابق، ص ٢٥-٢٦.

أن يتفرع عن هذا السؤال عشرات الأسئلة الصغرى، عرضتُ لها في دراستي التأسيسية لبلاغة الجمهور[1]. ويمكن تقسيم هذه الأسئلة إلى حزم وفقًا لما يأتي:

أ. أسئلة تخص العلاقة بين النص والاستجابة:

تناقش كيف تؤثر بنية النص بمستوياته المختلفة (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والمعجمية، والدلالية) في استجابات الجمهور، والعكس؛ أي كيف تؤثر بنية استجابات الجمهور بمستوياتها المختلفة في نص المتكلم بمستوياته المختلفة.

ب. أسئلة تخص العلاقة بين الأداء والاستجابة

تتسم بلاغة الجمهور بأنها تُعطي لدراسة الأداء أهمية لا تقل عن أهمية دراسة بنية النصوص. وتُعنى بلاغة الجمهور بدراسة كيف يؤثر الأداء في صياغة استجابات الجمهور، انطلاقًا من إقرار واضح بأهمية الأداء في الخطابات العمومية الراهنة. كما تطرح بلاغة الجمهور أسئلة عكسية حول كيفية تأثير استجابات الجمهور في أداء المتكلمين في سياقات التواصل الحي.

ج. أسئلة تخص العلاقة بين استجابات الجمهور والسياق

ويُدرَس فيها أثر سياق تداول الخطاب (ويشمل علاقات السلطة بين المتكلم والجمهور) في صياغة استجابات الجمهور. والعكس؛ أي الأثر الذي تُحدثه استجابات الجمهور في سياق التواصل، بما فيها تغيير موازين القوة بين المتكلم والجمهور.

إن غاية تأسيس حقل معرفي لدراسة استجابات الجمهور من منظور بلاغي هي استكشاف إمكانية تأسيس هوية جديدة للبحث البلاغي، ليس العربي فحسب بل الكوني أيضًا. هذه الهوية التي تقوم على خصوصية المادة المدروسة، والوظيفة، والسؤال المعرفي؛ لا تُمثِّل هويّة إقصائية لكينونة البلاغة التقليدية، بل هي هويّة إضافية.

لو أنني أستعمل أمثولة لوصف ما تقدمه بلاغة الجمهور لتطوير البحث في البلاغة العربية، لفضلتُ أمثولة الأرض المكتظة والقارة المجهولة. لقد عانى دارسو البلاغة العرب في

١- انظر، نفسه، الصفحة نفسها.

العقود الأخيرة من ضيق الأرض التي يتحركون فيها، فالموضوعات البلاغية التي يُمكن أن يدرسوها بدتْ شديدة المحدودية؛ بسبب اقتصارها على البلاغة السكاكية بوصفها مرجعية تنظيرية، والنصوص العليا بوصفها مادة تطبيقية، والأسئلة المعرفية التقليدية بوصفها إشكالات البحث، وأدوات التحليل التقليدية بوصفها منهجياته. ومن ثمَّ، شعر الباحثون أن أرض البلاغة الفقيرة لا يمكنها أن تلبي احتياجاتهم المتزايدة في تقديم معرفة جديدة، والانطلاق في آفاق التجديد. وكان السؤال المتكرر الذي أسمعه من الأساتذة قبل الطلاب هو: ماذا سندرس في البلاغة بعد أن دُرِس – تقريبًا- كل شيء؟ وكان الباحث الذي يتوجب عليه التخصص في البلاغة العربية يشعر كما لو أنه قد أُلقي به في قفر بعيد.

لقد حاول بعض الباحثين الفرار من هذا الجدب. فاعتمد بعضهم على تناسخ الأبحاث في موضوعات أقرب إلى الجدب المعرفي منها إلى الثراء، مثل دراسات الحجاج الآن، ودراسات الأسلوبية قبل عقدين من الزمان. فقد تحولت هذه الدراسات إلى تدريبات أكاديمية عقيمة، لا تفعل سوى أن تضع عناوين متشابهة، ومرجعيات نظرية فقيرة متشابهة، ثم تقدم تحليلات متناسخة، لا تزيد على وضع شاهد في دراسة لاحقة، محل شاهد مشابه في دراسة سابقة. فامتلأت كُتب، وعُبئت صفحات بفصول متناسخة، وتحليلات متناسخة، وظلت البلاغة قفرًا وأرض البحث جرداء.

عرفتْ البلاغة العربية محاولات أخرى أكثر نجاحًا لاستكشاف أرضٍ جديدة، تحققت عبر السعي نحو عقد تحالفات مع حقول أخرى مثل التداولية، والسيميوطيقا، وتحليل الخطاب. فتمكنت عبر هذه التحالفات من صياغة هويات متجددة.

في هذا السياق تأتي بلاغة الجمهور بوصفها محاولة جذرية لاستكشاف واستيطان فضاء بلاغي جديد. وتشبه بلاغة الجمهور جزيرة بحثية، تستقل بمادة مخصوصة، وموضوعات مخصوصة، وأسئلة معرفية مخصوصة، وتسعى لتطوير منهجيات مخصوصة أيضًا. وهي في الوقت ذاته، تجتهد لتشييد جسور تربطها بجزر وثيقة الصلة مثل علوم التواصل، وتحليل الخطاب، والنقد الأدبي. وتهدف هذه الجزيرة إلى تخفيف الوطء عن الأرض التقليدية للبلاغة، بواسطة هجرة أعداد متزايدة من الباحثين للاشتغال فيها.

ثانيًا: بلاغة الجمهور: سؤال الهويّة المعرفيّة

يكوّن المشتغلون بالمعرفة تصورات ابستمولوجية لمجالات اهتمامهم، بواسطة عمليات تعريف وتصنيف متنوعة. وعادة ما تخضع هذه العمليات للمراجعة والتعديل بسبب التحولات التي تطرأ على الممارسات المعرفية، والأوجه المتنوعة لها. وعلى سبيل المثال، فإن البنيوية عُرفتْ بوصفها منظورًا في بحث الظواهر الإنسانية، لكنها أيضًا تُقدّم مقاربات تحليلية (مثل المقاربة البنيوية للشعر)، ومناهج بحث (مثل منهج فلاديمير بروب في التحليل البنيوي للحكاية). كما أنها تتوسع -في مرحلة لاحقة من تطورها - حتى تكاد تتحول إلى فلسفة للعلوم الإنسانية، تُلقي بظلالها على علوم عديدة مثل علم النفس، والاقتصاد، والاجتماع، وغيرها. ومن الطبيعي أن تتباين التصورات الابستمولوجية لهذا الحقل من حقول البحث الأكاديمي استنادًا إلى إدراك الباحث له. وقد حاولتُ على مدار العقد الماضي أن أبلور تصورًا ابستمولوجيًا لدراسات بلاغة الجمهور. أقدمه فيما يأتي:

١- بلاغة الجمهور بوصفها منهجًا

يُستعمل مصطلح (منهج) بثلاثة مفاهيم مختلفة على الأقل في سياق دراسات النقد والبلاغة العربية. يُحيل الأول، وهو الأكثر شيوعًا، إلى نسق محدد من أفكار وتصورات تتطور عنها إجراءات وعمليات تحليل معينة. وهو المفهوم المقصود حين يستعمل المشتغلون في هذا الحقل تعبيرات مثل المنهج الأسلوبي، أو المنهج البنيوي التكويني، أو المنهج النفسي... إلخ. أما الاستعمال الثاني فيرتبط بالتمييز بين طرق جمع البيانات وتحليلها؛ إذ يمكن التمييز بين المناهج الكمية والمناهج الكيفية مثلا. وهناك، أخيرًا، مفهوم يتعلق بهوية السؤال البحثي المرتبط بدراسة المدونة. ويستعمل الباحثون في هذا الحقل تعبيرات مثل المنهج الوصفي، أو التحليلي، أو المقارِن... إلخ.

ليست بلاغة الجمهور– في الوقت الراهن- منهجًا علميًا بالمعنى الأول؛ فهي لا تقدم حزمة من الإجراءات والعمليات المحددة التي تطبق على ظاهرة ما. ومع ذلك، فإن نفي كون بلاغة الجمهور منهجًا علميًا في هذه المرحلة من مراحل تطورها لا ينفي أن تراكم البحوث فيها يمكن أن يؤدي إلى بلورة منهج خاص في تحليل استجابات الجمهور، لكنني أتوقع أن مثل هذا المنهج - في حال تشكله على يد المعنيين بها - سوف يكون منهجًا تكامليًا يفيد من عدد من

الإجراءات والعمليات المأخوذة من مناهج أخرى عدّة، ويضيف إليها ما يتوافق مع الظاهرة المدروسة، وهي استجابات الجمهور.

قد يؤدي عدم تبلور منهج محدد يعمل في إطار بلاغة الجمهور إلى تعاظم التحديات أمام المشتغلين بها؛ إذ عليهم تطوير أدوات تحليل خاصة بهم في كل معالجة نصية. ويبدو هذا الأمر ذا حدين؛ فهو من ناحية يُلزم الباحث ببذل جهد أكبر لتوليف هذه الإجراءات أو تطويرها بما يعني تحميله بعبء ومسؤولية، لكنه من ناحية أخرى، يضفي مزيدًا من الأصالة والإبداعية على هذه الدراسات. ويبدو هذا الجانب الإيجابي شديد الأهمية في السياق العربي على وجه التحديد. ويرجع ذلك إلى أن الدراسات العربية البلاغية ابتُليت بعدوى استنساخ المناهج، وتطبيقها تطبيقًا حرفيًا آليًّا على نصوص مختلفة.

٢- هل بلاغة الجمهور منظور معرفي؟

بلاغة الجمهور ليست منظورًا معرفيًا perspective. فهي لا تُطور نافذة خاصة للإطلال على موضوعات بحث مختلفة، كما هي الحال – مثلًا– في المنظورات النفعية أو الجمالية، والواقعية أو المثالية. ولا تمتلك بلاغة الجمهور في الوقت الراهن إلا نزوعًا ودعوة إلى إعادة الاعتبار لخطابات الجمهور، وهي تشترك في ذلك مع حقول معرفية أخرى مثل دراسات التواصل، التي تشهد تقديرًا متناميًا للدور الذي يلعبه الجمهور في التواصل الجماهيري.

٣- بلاغة الجمهور بوصفها مدرسة فكرية

تطمح بلاغة الجمهور – مستقبلا – أن تُكوِّن مدرسة أكاديمية. وتتأسس المدارس الأكاديمية بفضل حزم متساندة من الإسهامات المعرفية الجذرية والأصيلة في حقل معرفي ما، وتكتسب قبولا واعترافًا كبيرين، وتستمر فاعلة لأمد زمني طويل، ويُتعامل معها بوصفها جزءًا من التراث الأساسي الفاعل في هذا الحقل المعرفي. وعلى الرغم من تعدد الإسهامات الأصيلة المثرية للبلاغة العربية فإنني أظن أن هناك مدرستين فقط في التراث البلاغي العربي؛ الأولى هي مدرسة الجاحظ، وامتداداتها مع عبد القاهر الجرجاني، والثانية مدرسة السكاكي، وامتداداتها مع شراح التلخيص. وما عدا ذلك من إسهامات لم يُنتج تراكمًا معرفيًا، أو تأثيرًا جذريًا، يجعله مُشكِّلًا لمدرسة مستقلة. أما في العصر الحديث، فإن ثمة إسهامات شديدة الأهمية، غير أنها لم تترسخ وتتشعب إلى حد أن يُطلق عليها "مدارس بلاغية". بالطبع، يُمكن لنا أن نرصد مشاريع

غير مكتملة لمدارس بلاغية، مثل مشروع أمين الخولي، وتلامذته (وبخاصة مصطفى ناصف، وشكري عياد) المتحلقين حول مشروع فن القول، الذي وأده عزل الجامعة عن المجتمع بفعل الحكم العسكري في مصر بعد يوليو ١٩٥٢. كما يمكن الحديث عن مشروعات أخرى قد تُشكل مدارس بلاغية في المستقبل، مثل مشروع محمد العُمري المتحلق حول فكرة البلاغة العامة بجناحيها التداولي والتخييلي[١]، والذي يحتاج إلى جهود مستقبلية دؤوبة من فريق كبير من الباحثين، ممن يتمتعون بالاستقلال والجرأة الفكرية والإبداع، لتقديم مراجعات أصيلة ناقدة، وسد الفجوات الموجودة في المشروع، والزمن كفيل باختبار نتائج مثل هذا العمل.

أما بلاغة الجمهور فإنها جزء من مشروع بلاغي يهدف إلى تأسيس بلاغة للحياة اليومية، تُعنى بدراسة الأبعاد البلاغية لنصوص البشر العاديين، وكلامهم، واستجاباتهم في شتى مناحي الحياة. وبالطبع فإن هذا المشروع ما زال في طور التشكل، وما زال من المبكر جدًا تقييم جدارته بأن يتحول إلى مدرسة بلاغية.

٤- بلاغة الجمهور بوصفها حقلاً معرفيًّا

تشكل بلاغة الجمهور في الوقت الراهن حقلا معرفيًا، يضم كمًا غير محدود من مادة البحث، وعددًا لا نهائيًا من موضوعاته. يشتمل هذا الحقل على كل الظواهر المرتبطة بالإقناع والتأثير في الاستجابات التي يُنتجها الجمهور في فضاءات عمومية. فحيثما وجد فضاء عمومي، يُتداول فيه خطاب، وتُنتج فيه استجابة، فثمة إمكانية لوجود "بلاغة الجمهور"، بوصفها الحقل المعرفي الذي يدرس العلاقة بين هذه الاستجابات والسلطة والخطاب من ناحية، وإمكانيات تطوير هذه الاستجابات لتصبح استجابات بلاغية من ناحية أخرى. وسواء أكانت هذه الاستجابات لفظية أم غير لفظية، فردية أم جماعية، عفوية أم معدة سلفًا، مكتوبة أم مسموعة أم مرئية، فإنها تشكل مادة للبحث في إطار بلاغة الجمهور. وسواء أكان التواصل مباشرًا أم غير مباشر؛ واقعيًّا أم افتراضيًا فإنه يُشكّل موضوعًا للبحث. وبصياغة أخرى يمكن القول إنه: حيثما وجدت استجابة جماهيرية؛ وجدت بلاغة الجمهور بوصفها مادة. وحيثما دُرست استجابات الجمهور من منظور الإقناع والتأثير وجدت بلاغة الجمهور بوصفها علمًا. وإذا كان تمحور دراسة

١- يتجلى مشروع الأستاذ العمري في عدد من أعماله من أهمها، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٥.

ما حول استجابة الجمهور، يُعطي لبلاغة الجمهور هوية الحقل المعرفي المستقل، فإن ثمة وجهة نظر أخرى تتعامل معها بوصفها مستوى من مستويات التحليل البلاغي.

٥- بلاغة الجمهور بوصفها مستوى من مستويات التحليل البلاغي

يمكن التعامل مع بلاغة الجمهور على أنها مستوى من مستويات التحليل البلاغي، يختص بدراسة استجابة الجمهور للخطابات العمومية. ووفقًا لذلك، فإن بحثًا بلاغيًا تفصيليًا لخطاب ما يمكن أن يدرس المستويات الآتية:

- مستوى بناء النص البلاغي (ويشمل دراسة الأصوات، والصرف، والتركيب، والمعجم (في النص اللغوي)؛ أو الألوان والمنظور والبؤرة (في الصورة)، ويُضاف إليها الحركة في النص المرئي المتحرك)،
- مستوى الحجج (تقنيات الحجاج والتفنيد)،
- مستوى الصور البلاغية (سواء الصور اللفظية والمرئية)،
- مستوى السياق (دراسة العلاقة بين تشكلات الكلام وأدائه من ناحية، وسياقه ووظائفه من ناحية أخرى)،
- مستوى استجابة الجمهور (العلاقة بين بناء النص وأدائه واستجابات الجمهور له).

ووفقًا لهذا التصور، فإن بلاغة الجمهور يمكن أن تندمج في الممارسات التقليدية للتحليل البلاغي، بوصفها مستوى من مستويات التحليل.

لابد من الاعتراف بأن مُشكل الهويّة المعرفية لبلاغة الجمهور لم يُدرس على نحو مُعمّق في دراسات بلاغة الجمهور المنجزة حتى الآن. ويُمثل هذا المشكل ثغرة، تحتاج إلى مزيد من العناية والجهد؛ نظرًا لأن العديد من الانتقادات الموجهة إلى بلاغة الجمهور، محفّزة بالتشوش المتعلق بماهيتها. وانطلاقًا من إدراك مناطق الضعف في بنيان مشروع بلاغة الجمهور، سوف أناقش فيما يأتي الانتقادات الموجهة للمشروع، أو التي يُمكن توجيهها لها.

ثالثًا: بلاغة الجمهور في ميزان النقد

لا معرفة دون انتقاد. والضامن الوحيد لتطور معرفة ما هو الترحيب بكل نقد، ودعمه، وتهيئة الأجواء لممارسته، فبغير ذلك، سنظل طوال الوقت أسرى قناعات ربما لا تكون أفضل مما يمكن الوصول إليه. وقد تلقيتُ على مدار السنوات الماضية عشرات الآراء المنتقدة لمشروع بلاغة الجمهور، وكانت هذه الانتقادات هي الزاد الحقيقي لمواصلة تطويرها.

يمكن أن أصنّف هذه الانتقادات في ثلاث مقولات كبرى؛ تُعدُّ الأولى امتدادًا لمشكل الهويّة، وتخص حدود انتماء هذه الممارسة الأكاديمية لعلم البلاغة؛ وتتعلق الثانية بالبعد التحليلي لبلاغة الجمهور. أما الثالثة فتخص البُعد المعياري لها. وسوف أستعرض فيما تبقى من هذا المقال أبرز هذه الانتقادات، وتعليقي عليها، ثم أُقدّم انتقادات أخرى أوجهها بشكل شخصي للمشروع. وأختتم بمخطط مختزل للتحديات والآمال.

١- مخاوف الاحتلال المعرفي: هل تفقد البلاغة العربية أرضها؟

هناك جدل متواصل بشأن التهديدات الناشئة عن أي محاولة لتوسيع نطاق الممارسات الأكاديمية لحقلٍ معرفي ما، بما قد يتماس مع موضوعات، أو نظريات، أو منهجيات، أو مفاهيم، كان يُنظر إليها – تقليديًا– على أنها تنتمي إلى حقل معرفي آخر. وعادة ما تُستعمل حزمة متنوعة من الاستعارات المفهومية للتعبير عن هذه التهديدات. وفي سياق البلاغة العربية، فإن الباحثين يستعملون استعارات مثل الذوبان، والاحتلال، والضياع، للتعبير عن التخوف من تغيير العلاقات القائمة بين البلاغة العربية والحقول المعرفية وثيقة الصلة. فتعبيرات مثل الخشية من أن تذوب البلاغة في علوم التواصل أو تحليل الخطاب... إلخ، تنتمي إلى استعارة الذوبان. أما تعبيرات مثل أن البلاغة تفقد أرضها لصالح علوم كذا...؛ أو يخضع علم البلاغة لاحتلال معرفي من علوم كذا... إلخ)، فهي تعبيرات تنتمي إلى استعارات الهيمنة والاحتلال، وهي عادة أكثر قوة في تعبيرها عن التخوف على مستقبل العلم. وفي بعض الأحيان تُضفَى نزعة قومية على هذه الاستعارات؛ لتتشكل تعبيرات مثل فقدان الهوية العربية للبلاغة وتهديد التراث البلاغي العربي... إلخ.

تقيم بلاغة الجمهور علاقات تحالف معرفي مع دراسات التواصل والسيميوطيقا وتحليل الخطاب وغيرها. بالطبع فإنه يمكن إدراك هذه التحالفات على نحو سلبي بوصفها تهديدًا

بفقدان الهويّة المميّزة للبلاغة. ويجدر بنا التأكيد أن التخوف من فقدان أحد الحقول المعرفية لهويته وخصوصيته أمر طبيعي للغاية في لحظات التحول المعرفي، خاصة تلك التي تقود إلى تغير في النموذج الإرشادي للعلم. وعادة ما يُدافع المشتغلون في حقل معرفي ما عن تصورهم لماهية هذا الحقل ومسائله ومادته ومناهجه في مواجهة أي "تهديد" للمعرفة المستقرة، بواسطة التصورات الناشئة المغايرة. ومن الطبيعي أيضًا أن يسعى أصحاب التوجهات الجديدة إلى التفاوض مع نظرائهم المتمسكين بالنموذج الإرشادي القائم؛ بهدف توسيع هذا النموذج ليشمل ما يقدمونه. وبسبب من ضعف الأرضية المشتركة بين النموذج القائم والتوجهات المقترحة، قد يحتاج أنصار التجديد إلى نبذ النموذج القائم كلية، والدعوة لنموذج إرشادي جديد تمامًا.

من الجلي أن الدرس البلاغي العربي الراهن يشهد تصادمًا عنيفًا بين نماذج إرشادية عديدة للبلاغة. وتتجلى مظاهر هذا التصادم في عبارات من قبيل: عن أي بلاغة نتحدث؟، هل هذه هي البلاغة كما نعرفها وكما تعلمناها؟، هل تغامر البلاغة بالاختفاء لصالح حقول أخرى؟ أ هذه "بلاغة" أم تحليل خطاب أم سيميائية، أم تداولية أم غيرها؟.

هذه التساؤلات تعكس قلق المفهوم، وتكشف عن حدوث تصادم بين المفهوم المستقر للبلاغة ومفاهيم جديدة تسعى للتفاوض معه. ويبدو هذا طبيعيًّا في الإطار المعرفي الذي تتشكل فيه المفاهيم على وفق نماذج إرشادية تتمتع بقدر كبير من الاستقرار، وقدر أقل من المرونة، كما هي الحال في النموذج الإرشادي للبلاغة العربية.

لقد سبق أن ميزتُ بين ثلاثة توجهات بلاغية هيمنتْ على الدرس البلاغي العربي منذ نشأته أواخر القرن الثاني للهجرة حتى الآن. كلٌّ توجه من هذه التوجهات، يختص بمادته المستقلة، ومرجعيته المعرفية، وأسئلته البحثية، وتصوره الخاص للعلاقة مع العلوم الأخرى، وتحديده الخاص لوظيفة العلم[1]. وخلصتُ إلى أن هذه التوجهات تعاني في الوقت الراهن من مشكلات تتعلق إما بطبيعة مادتها، أو أسئلتها المعرفية، أو علاقاتها بالعلوم الأخرى. واقترحتُ توجهًا رابعًا للدرس البلاغي يقترح تغييرًا جذريًا في النموذج الإرشادي للبلاغة العربية- على نحو ما شرحتُ سابقًا -يشمل مادة العلم، ووظيفته، وأسئلته المعرفية، وعلاقاته بالعلوم الأخرى. ومن الطبيعي أن يلقى هذا المقترح مقاومة من المتشبثين بالنماذج الإرشادية القديمة. وقد حاولتُ على مدار الجزء الأول من هذا البحث تقديم براهين مقنعة بشأن جدوى انتماء بلاغة

١- انظر، عبد اللطيف، بلاغة المخاطب، مرجع سابق، ص ١٠-١٦.

الجمهور إلى الحقل الواسع للبلاغة العربية. ومع ذلك، يجدر التأكيد أن مشروع بلاغة الجمهور لا يقصي التوجهات الأخرى ولا يحل محلها، بل يقدم استكشافًا معرفيًا لمنطقة بحث كانت مجهولة في أرض البلاغة، ويُقدّم مستوى إضافيًا من مستويات التحليل يمكن أن يندمج مع المستويات المتعارف عليها في البلاغة التقليدية.

٢- البُعد التحليلي لبلاغة الجمهور

تتصل معظم الانتقادات التي تعرضت لها بلاغة الجمهور بمشكل الهويّة المعرفيّة؛ وبالتحديد مشروعيّة اندراجها ضمن الحقل المعرفي للبلاغة بحدوده التقليدية. وعلى الرغم من أهمية هذه الانتقادات، فإنها – في رأيي – أقل محورية من انتقادات أخرى لم توجّه للمشروع مثل تلك المتعلقة ببُعده التحليلي. ويرجع ذلك إلى أن مُشكِل الهويّة لم يَعُد حاسمًا في هذه المرحلة من تطور المعارف، فالعلوم الإنسانية- تحديدًا- تشهد ذوبانًا في التخوم بين الحقول المعرفية، وما مصطلحات العلوم البينية وتداخل المعارف إلا تعبير عن تجاوز الهويات التقليدية المغلقة. ومن ثمَّ، فإنّ سؤال تمايز الهويّة المعرفيّة ذاته يكاد يوشك على الانقراض.

لقد ذكرتُ، فيما سبق، أن بلاغة الجمهور لم تنُجز بعدُ إطارًا تحليليًا جديدًا، وإن كانت تسعى لتدشينه. وربما يتعين على الباحثين الممارسين لها في المرحلة المقبلة صياغة مثل هذا الإطار. وفي سبيل تشكيله، يجدر بنا تأمل فجوات الممارسة الحالية، وأهمها ضعف البُعد التجريبي. فلكي تصل بلاغة الجمهور إلى تصورات نظرية دقيقة بشأن العلاقة بين الخطاب والاستجابة تحتاج إلى:

(١) إجراء دراسات تجريبية، تقيس تأثير متغير محدد في سلوكيات المخاطبين.

(٢) تحليل مدونات كبيرة.

والعنصر الأول لم يُنجز بحسب ما اطلعتُ عليه من دراسات حول بلاغة الجمهور. أما العنصر الثاني، فهناك دراسات تُحلل مدونات كبيرة[١]. ومع ذلك، لا تزال هناك تحديات إضافية، مثل التوظيف الأمثل لطرق قياس الاستجابة وأساليبها.

١-يقود كاتب هذا البحث فريق عمل مكونًا من ثمانية باحثين لدراسة استجابات الجمهور في مدونة ضخمة من الخطب المصرية فيما بين ١٩٥٢-٢٠١٠، بدعم من جامعة القاهرة.

ويرتبط بالبعد التحليلي انتقاد آخر يخصُّ دقة فحص العلاقة بين الخطاب والاستجابة، إذ تربط بلاغة الجمهور بين بنية الخطاب وأدائه من ناحية، واستجابة الجمهور من ناحية أخرى. ولا يمكن أن يكون هذا الربط دقيقًا دون أن نضع في الاعتبار العوامل الأخرى المؤثرة في إنتاج الاستجابة؛ لا سيما العوامل الآتية:

(١) العوامل المتعلقة بسياق إنتاج الخطاب وتداوله.

(٢) التحيزات والميول المسبقة للجمهور.

(٣) أثر القوى المادية غير الخطابية.

وهو ما يفرض وجود إطار متعدد المتغيرات لتحليل الاستجابة في إطار بلاغة الجمهور.

٣- نقد البُعد المعياري لبلاغة الجمهور

لبلاغة الجمهور بُعد معياري يتمثل في تقديم إرشادات ومعايير لإنتاج ما أطلقتُ عليه "الاستجابة البلاغية"، وعرفتُها بأنها ((الاستجابات المقاومة للخطاب السلطوي))[١]. وقد استدعى البُعد المعياري لبلاغة الجمهور الكم الأكبر من الانتقادات الموجهة للمشروع. وهي انتقادات موجهة إلى مسألتين محددتين:

(أ) الطابع المثالي لبلاغة الجمهور (ب) مفهوم الاستجابة البلاغية.

أ- في نقد مثالية بلاغة الجمهور: هل يعيب معرفةً ما أن تكون مثالية؟

يتعلق أحد الانتقادات التي تعرَّضَتْ لها بلاغة الجمهور على مدار السنوات الماضية، بهدف من أهدافها هو سعيها لتعزيز قدرة أفراد الجمهور العادي على إنتاج استجابات بليغة في سياقات التواصل الجماهيري. ويمثل هذا الهدف الصيغة المعكوسة من الهدف المحوري للبلاغة الإنشائية، وهو تمكين المتكلم من إنتاج خطاب بليغ؛ أي إنتاج خطاب مؤثّر ومقنع يمكّنه من تحقيق أهدافه من الخطاب. ويستند هذا الانتقاد إلى:

١-عبد اللطيف، عماد. (٢٠٠٩). لماذا يصفق المصريون؟ العين، القاهرة، ص ٦٣.

١- أن هذا الهدف يكشف عن رؤية مثالية غير ممكنة الإنجاز.
٢- أنه يجعل المعرفة في خدمة أهداف اجتماعية، بما يؤثر في موضوعيته.
٣- أنه يسعى إلى دعم قوة الغوغاء، ويمنح سلطة لحشود تفتقد إلى العقلانية والحكمة، هي ذلك الوحش المسمى "الجماهير".

أمّا في ما يتعلق باعتماد بلاغة الجمهور رؤية مثالية للمعرفة، فإن هذا صحيح تمامًا. فالمعارف الإنسانية تتخذ لنفسها دومًا أهدافًا نبيلة تسعى لتحقيقها، والهدف (المثالي) لبلاغة الجمهور هو مقاومة التلاعب بواسطة الخطاب، وتمكين الجمهور من كشفه، والاستجابة له على نحو فعال. إن ما يعيب مثاليةَ معرفةٍ ما أمران؛ الأول أن تكون مفارقة للواقع، وغير قابلة للتطبيق؛ والثاني أن تتناقض مقولاتها المثالية مع ممارساتها الفعلية. ومن ثمَّ، فإن السؤال الأكثر أهمية في هذا السياق ربما هو: أيمكن تحقيق الهدف (المثالي) لبلاغة الجمهور أم أنه حُلم (أو وهم) عصي المنال؟ وكيف يمكن تحقيقه؟ والإجابة الدقيقة على السؤال الأول متروكة للمستقبل. فالجهد الأكاديمي المبذول من باحثي بلاغة الجمهور هو الذي سيمكننا من حسمه. وربما كانت الإجابة عن السؤال الثاني مؤثرة في الوصول إلى إجابة بالإيجاب على السؤال الأول. فمعرفة سبل تحقيق هذه الغاية المعرفية، ضرورة جوهرية لتحققها. وبشكل عام، فإن تحقق هذا الحلم الممكن يتطلب الحرص على العمل الجماعي، المتواصل، المبني على تصور دقيق للحدود والإمكانيات، وتذكر الهدف النبيل الذي يجب أن تضعه أي معرفة نصب عينيها.

تتوقف إمكانية تحقق سعي بلاغة الجمهور لتمكين الأفراد العاديين الذين يشكلون جمهورًا على الوعي بأهمية التمسك بالمعايير العلمية، بصرامة لا تقبل اللين. إن التخوف من أن يؤدي نبل مقصد بلاغة الجمهور إلى تساهلها في معاييرها العلمية، في سبيل التحيز للطرف الذي تراه الأضعف في عملية الاتصال (أعني الجمهور)، مشروع وارد في الوقت ذاته. وفي الحقيقة، فإنه يقع على عاتق باحثي بلاغة الجمهور تقديم كل الأدلة الممكنة الدالة على بُعدهم عن الانحياز غير المبرر، أو الانخراط في ممارسات أكاديمية غير مستحبة مثل التأويل المفرط، أو التعميمات غير المبرهن عليها.

ويتبقى التخوف الثالث المتعلق بطبيعة الجمهور. فبعض منتقدي بلاغة الجمهور يرون أن الجمهور يمثل كيانًا غير متعقل، فكيف يمكن إمداد هذا الكيان المنفلت من عقال العقل بإرشادات وأدوات تمكنه من استعمال قوته في الاستجابة، التي ربما لا يدركها على نحو حقيقي (لحسن الحظ، من وجهة نظرهم). وأبدأ أولًا بتأكيد أن بلاغة الجمهور تتبنى موقفًا إيجابيًا من

الجمهور، يختلف على نحو كبير عن المواقف التقليدية له في التصورات البلاغية اليونانية والعربية. فقد نظر أفلاطون إلى الجمهور بوصفه حشدًا من الجهلاء الذي يتركون قيادهم بيد جاهل بليغ (سفسطائي)؛ لأنه يتمتع بقدرة على سحر عقولهم بحيل كلامية[1]. أما تصور الجمهور عند أرسطو فيكاد يقتصر على مجموعات مختارة من المتلقين؛ هم المحلفون والقضاة في المحاكم، والمواطنون المعنيون بالشأن السياسي في البرلمان، وجمهور الحفلات الدينية. ولم يتحدث أرسطو عن الجمهور الغُفل، الذي يتوجه إليه الخطاب في سياقات التواصل الجماهيري الراهنة. وهو جمهور كان هناك ميل متواصل للتحقير منه عند النخب الفكرية لقرون طويلة، في معظم الثقافات بما فيها الثقافة العربية.

تُعد عتبة التسمية أكثر العتبات دلالة على الموقف السلبي من الجمهور في التراث العربي. وقد كانت تسميات مثل "الغوغاء"، "الدهماء"، "السوقة"، "الهمج"، "السِفْلة"، "الأوباش"، "الرعاع"، وغيرها، تمثل وصمًا لجماعات العامة، وما تزال. وقد مارست النخب الفكرية في كل الثقافات تقريبًا نقدًا جذريًا للجمهور؛ أي حشود الأفراد العاديين. ويفتتح الجاحظ – على سبيل المثال – رسالته "في نفي الشبيه" بعبارات قاسية في نقد العامة:

> "وليست للخاصة قوّة بالعامة، ولا للعيلة قوة على الأراذل؛ فقد قالت الأوائل فيهم، وفي الاستعاذة بالله منهم: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُملكوا، وإذا تفرقوا لم يُعرفوا. وقال واصل بن عطاء: "ما اجتمعوا إلا ضَرُّوا، ولا تفرَّقوا إلا نفعوا" فقيل له: قد عرفنا مضرّة الاجتماع، فما منفعة الافتراق؟ قال: يرجع الطَّيَّان إلى تطيينه، والحائك إلى حياكته، والملاح إلى ملاحته، والصَّائغ إلى صياغته، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته. وكلُّ ذلك مرفقٌ للمسلمين، ومعونة للمحتاجين. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظر إلى الطَّغام والحَشْو قال: "قبح الله هذه الوجوه، لا تُعرف إلا عند الشرّ"،...، وقال شبيب بن شبيبة: قاربوا هذه السَّفلة وباعدوها، وكونوا معها وفارقوها، واعلموا أنَّ الغلبة لمن كانت معه، وأنَّ المقهور من صارت عليه. وقد وصفهم بعض العلماء فقال: يجتمعون من حيث يفترقون، ويفترقون من حيث يجتمعون، لا يُفلُّ غربهم إذا صالوا، ولا تنجع فيهم الحيلة إذا هاجموا. والعوامُّ – أبقاك الله – إذا كانت نشرًا فأمْرُها أيسر، ومُدّة هيجها أقصر. فإذا

١- انظر تحليلا مفصلا لتصور أفلاطون للجمهور في بحثي عن دراسة الجمهور في العلوم الإنسانية، ضمن هذا الكتاب.

كان لها رئيسٌ حاذق ومُطاع مدبِّر، وإمام مقلَّد، فعند ذلك ينقطع الطَّمع، ويموت الحقّ ويُقتل المُحقّ. فلولا أنَّ لهم متكلِّمين، وقُصّاصًا متفقِّهين، وقومًا قد باينوهم في المعرفة بعض المباينة، لم يلحقوا بالخاصّة، ولا بأهل المعرفة التَّامَّة. ولكنا كما نخالفهم نرجوهم، وكما نُشفق منهم نطمع فيهم"[1].

يلخص هذا المقتبس من الجاحظ وجهة النظر الشائعة بشأن الجمهور في التراث العربي. يمكن أن نستنتج من عبارات الجاحظ أن الموقف من الجمهور تحكمه ثنائية التحقير والرجاء. فالجاحظ يُدرك القوة التي ينطوي عليها الجمهور "فالغلبة لمن كانت معه، والمقهور من صارت عليه"، وفي الوقت ذاته، فإنه يحتقرها "قبح الله وجهها". لقد أدرك الجاحظ أن العامة أقوى من الخاصة، وإذا امتلكتْ قائدًا، فإنها لا تعرف الهزيمة. وهو يرى في العامة شرًا مطلقًا، ومن ثمّ فإن تفرقها خير من تجمعها. وهي وجهة نظر لقيت دومًا من يعتقد فيها ويدافع عنها على مدار التاريخ، ولعل جوستاف لوبون كان أكثر من دافع عنها بجرأة ووضوح لم يجاره فيهما كثيرون في العصر الحديث.

تتبنى بلاغة الجمهور وجهة نظر مغايرة لتلك التي يُلخصها الجاحظ في نصه السابق. فالجمهور ليس دومًا حشدًا من الأشرار السذج، فاقدًا للرشد، تحكمه غريزة العدوان. على خلاف ذلك، يُنظر للجمهور بوصفه كيانًا شبه متعقل، يتسم بدرجة من الإيجابية، ويسعى لإنجاز مصالحه الخاصة. ومن ثمّ، يمكن ترشيد استجابته، بواسطة الوعي والممارسة. وفي الحقيقة فإن جزءًا من الفرق بين الرؤيتين راجع إلى التطور الحادث في طبيعة الجمهور في سياقات التواصل الراهنة؛ إذ يتشكل هذا الجمهور غالبًا من أفراد مستقلين، لا يجمعهم فضاء فيزيقي واحد، وإنما يتلقون الخطابات الجماهيرية في فضاءات خاصة، كما هي الحال مثلا، مع جمهور مكوّن من أفراد يتلقون خطبة سياسية في غرف نومهم الخاصة عبر شاشات التلفاز.

أ- نقد مفهوم الاستجابة البلاغية:

تتعدد أوجه نقد مفهوم الاستجابة البليغة، ويمكن حصرها فيما يأتي:

١- قابلية استجابات الجماهير للتحول إلى استجابات سلطوية.

١-الجاحظ، عمرو بن بحر. رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ١٩٦٤، ج١، ص ٢٨٣.

استنادًا إلى واقع الممارسة الخطابية التي تكشف عن إمكانية تزييف استجابات للخطابات السلطوية في كثير من السياقات؛ بهدف تعزيز قبضة التلاعب. كما هي الحال - مثلا - مع مجموعات المصفقين والهتّيفة الذين يُنتجون استجابات مخطط لها سلفًا بهدف التأثير في الجمهور الفعلي. وهو تخوّف قائم ومشروع، يجب على بلاغة الجمهور الاستجابة له من خلال إنجاز دراسات تعزز من قدرة الأفراد العاديين على التمييز بين الاستجابات العفوية والاستجابات المصنوعة، التي تقوم بها جماعات مخصوصة، مثل الميليشيات الإلكترونية. كما يُنتظر أن تُنتَج دراسات أخرى نظرية، تقدم توصيفات للسياقات التي يُحتمل فيها تزييف الاستجابات الجماهيرية؛ كما هي الحال مثلا مع الأحداث الخطابية المتداولة في فضاءات مقيّدة؛ مثل الخطب السياسية التي تُنتج أمام جمهور مُختار بعناية.

٢- مخاطر تشويه التواصل الجماعي تحت وطأة الاستجابات المنفلتة.

وهو انتقاد وجيه أيضًا، بسبب الممارسة غير المنضبطة - أحيانًا-للاستجابات الجماهيرية. وتتجلى في مخاطر انتهاك الأخلاق (مثل استعمال لغة أو إشارات بذيئة)، أو انتهاك القانون (مثل إنتاج خطابات عنصرية وتمييزية) أو غيرها. كما أن الاستجابات المنفلتة يمكن أن تفتح الباب أمام تحول التواصل البشري إلى صراع بين بلاغة المتكلم وبلاغة الجمهور. وعلى الرغم من أن الحوار المتبادل بين بلاغة المتكلم وبلاغة الجمهور يبدو ضروريًا ولازمًا - وهو هدف المشروع أساسًا - فإن غياب تقنين هذا الحوار قد يؤدي إلى غلبة الصراع، وربما استحالة التواصل. فالتشويش - على سبيل المثال - يمكن أن يكون استجابةً بليغة، لكن عدم تقنينه قد يؤدي إلى استحالة إنجاز فعل التواصل. ويؤيد واقع التواصل في العالم العربي خطورة هذه المخاوف؛ وقد وصل تهديدها لتشويه التواصل إلى حد اللجوء إلى تقييد استجابات الجماهير أصلا؛ كما حدث مع إلغاء خواص التعليق الإلكتروني على أخبار ومقالات رأي كثير من الصحف والمواقع الإلكترونية، مثل معظم مقالات الرأي في صحيفة الشروق المصرية، وموقع الإذاعة البريطانية العربية على الإنترنت. ويمثل هذا التحدي فرصة أخرى أمام البحث في بلاغة الجمهور؛ إذ يمكن أن تُدرَس آثار هذه التشوهات في التواصل الإنساني من منظور بلاغي.

٣- مُشكل فردية الاستجابة

ثمة افتراض ضمني في بلاغة الجمهور هو أن الجمهور مكوّن من أفراد يمكنهم أن يتسموا بالوعي، وأن يتسلحوا بقدرات نقدية، وبفعالية خطابية، تمكنهم من إنتاج استجابات بليغة.

ويتهاوى هذا الافتراض كليّة حين نضع في الحسبان حقيقة أنّ شرائح من الجماهير سلكتْ وتسلك في سياقات شتى بوصفها حشودًا جماعية، مَقُودَة، ومقيّدة، بفعل قوى مادية أو معنوية مهيمنة. ولا فرق في هذه القوى المتحكمة بين أن تكون شبح بندقية مسلطة على رأس الجمهور، أو طاحونة إيديولوجيا مسلطة على عقله. فالنتيجة واحدة، هي تحول الجمهور إلى حشد مُنقاد، ومن ثمّ تلاشي إمكانيات الوعي النقدي، والفعالية الخطابية، والاستجابة البليغة.

في حضرة هذه الحشود المنقادة، لا مجال للحديث عن بلاغة الجمهور؛ لأننا سنكون أمام مفارقة جذرية بين واقع الانقياد، وأفق المقاومة الذي يَلزم بلاغة الجمهور حتى تتحول إلى واقع ملموس. وعلى الرغم من ذلك، فإن فضاء ممارسة بلاغة الجمهور، بوصفها إنتاجًا للاستجابات البليغة، يتسع ويتنامى تناميًا غير مسبوق في تاريخ البشرية. مرجع ذلك، أن الجمهور الواقعي بمعناه التقليدي (بوصفه حشدًا معروفًا في مكان وزمان مغلقين)، يوشك أن ينقرض لصالح الجمهور الافتراضي، الذي هو أفراد لا حشود، شبه مجهولة؛ تقبع وراء حواسيب مخاتلة، تمارس هامش حرية فردي أكبر من أي هامش أتيح للبشر طوال تاريخهم. وهكذا فإن جزءًا من مخاطر السيطرة على استجابات الجماهير يمكن ترويضه بفضل الفضاءات الافتراضية، التي تتيح ميلادًا جديدًا لمعنى الفردية؛ يمثل مزيجًا غير مسبوق من الجمهور-الفرد. ولعلي لا أكون مبالغًا حين أقول إن وسائل التواصل الافتراضي تفكك على نحو حاسم، تلك الثنائية التقليدية (فرد-جمهور)؛ وتشكل بدلا منها مزيجًا، يكون فيه الأفراد جمهورًا، والجمهور أفرادًا.

٤- مُشكل أصالة الاستجابة

تُحلل بلاغة الجمهور علامات شتى يُنتجها الجمهور في سياق تلقيهم لخطابات عمومية في فضاءات واقعية وافتراضية. وثمة مسلمة تُمثل خلفية ضرورية للبحث؛ هي أن الاستجابات المدروسة هي استجابات أصيلة؛ بمعنى أنها تصدر بالفعل عن الأشخاص المنسوبة إليه، وهم ينتجونها بوعي وإرادة كاملين. هذه المسلمة تبدو ضرورية؛ لأنها تدعم مصداقية النتائج التي تتوصل إليها دراسة ما. ومع ذلك، فإن الواقع يتحدى هذه المسلمة في كثير من الأحيان. فالاستجابات المنتجة في الفضاءات العمومية الواقعية قد تُزيّف. أما الفضاءات الافتراضية فإن إمكانيات تزييف الاستجابات فيها أعلى وأصعب على الكشف. وعلى سبيل المثال، فإن تصفيق الجمهور الواقعي في بعض المناسبات السياسية، كان يختلط بتصفيق مسجَّل، مبثوث عبر أجهزة

بث صوتي عملاقة، في حين أن أصوات التصفيق الواقعي كانت تُستبعد في بعض الحفلات الغنائية، ويحل محلها تصفيق جمهور آخر في مناسبة أخرى، أكثر حماسة وارتفاعًا[١].

هذا التزييف في بعض استجابات الجمهور يمكن أن يمثل تحديًا لمصداقية نتائج الدراسات التي تصف هذه الاستجابات وتحللها. وعادة تتوجه أسئلة مثل: ما يدريك أن الأشخاص المنسوبة إليهم الاستجابات حقيقيون؟ ألا يُحتمل أن تكون هذه الاستجابات مُعدة سلفًا؟ وفي الواقع، فإن هذه الأسئلة تطرح تحديات بحثية، تُحفز على دراسة بلاغة الجمهور، أكثر مما تقوّضها. فالحاجة إلى تطوير أدوات معرفية خطابية تمكننا من التمييز بين الخطابات العفوية وتلك المعدة سلفًا أمر ضروري. كذلك فإن الكشف عن أساليب تزييف الاستجابة، وتعرية الاستجابات المزيفة، يقعان على عاتق الباحث في بلاغة الجمهور.

٥- التصور الرومانسي لفاعلية استجابات الجماهير

يُعدُّ إنتاج استجابات بلاغية؛ أحد أهداف بلاغة الجمهور في بُعدها الإنتاجي. ويقوم هذا الهدف على مسلّمة غير معلنة هي أن أفراد الجمهور يمكنهم إنتاج استجابات راشدة عقلانية مقاومة للخطابات العمومية التمييزية أو الإقصائية أو المضللة التي تُنتج في الفضاء العام. وقد يرى البعض أن هذا الهدف يعكس تصورًا رومانسيًا لفاعلية استجابات الجماهير، استنادًا إلى أن الجماهير لا تشكل قوة حقيقية مقارنة بمنتجي الخطاب النافذين المهيمنين. وبالطبع، فإن أصحاب النفوذ والسلطة يسعون بشتى الطرق لفرض هيمنة أو سيطرة على الفضاء العمومي. لكن من الصحيح أيضًا أن الجمهور يستحوذ على مزيد من الصلاحيات والقوة بفضل وسائط الاتصال الراهنة.

خاتمة: تحديات وآمال

لقد قطع مشروع بلاغة الجمهور شوطًا بالقياس إلى نقطة ابتدائه، لكن لا تزال هناك تحديات كبيرة، وآمال عريضة. وما بين شاطئ التحديات وشاطئ الآمال يتعين ركوب سفينة الجهد والمحاولة. على رأس التحديات التي تواجه بلاغة الجمهور في الوقت الراهن، ضرورة تعزيز البُعد التجريبي لبلاغة الجمهور، وتعظيم إفادتها من المناهج الكمّيّة، والاشتغال على

١- لأمثلة على مثل هذا التزييف في استجابات الجمهور يمكن الرجوع إلى: عبد اللطيف، عماد. (٢٠٠٩). لماذا يصفق المصريون؟ دار العين، القاهرة، ص ٣٠-٣١.

مدونات كبيرة. كذلك تطوير أدوات إجرائية تخصها، لدراسة العلاقة بين الخطاب والاستجابة، من خلال الإفادة على نحو أكثر عمقًا من علم النفس المعرفي cognitive psychology. علاوة على ذلك، يحتاج المنخرطون في دراسات بلاغة الجمهور إلى مخاطبة مشكل الهوية المعرفية لهذا النوع من النشاط المعرفي، وإلى مراجعة مفهوم الاستجابة البلاغية على نحو يأخذ في الحسبان الانتقادات المهمة الموجهة لها.